

البعث العربي هو الانقلاب

سأتناول⁽¹⁾ في حديثي معنى من معاني حركتنا، هذا المعنى هو ان البعث العربي يتلخص في كلمة الانقلاب. ولا اعتقد المجال متسعاً للافاضة ولتناول الفكرة من مختلف نواحيها، فأكتفي في هذا الحديث بأن القي ضوءاً على الروح التي تدفع حركة كحركتنا.

لكل حركة روح او عاطفة او صورة تسبقها وتحفز على تحقيقها، وراء كل حركة نظرة الى الحياة تكون صميمة راسخة في أذهان الذين يقومون بالحركة، وهي التي تلون حركتهم وترسم لها منطقتها. فما هي اذن روح الانقلاب او فلسفة الانقلاب او عاطفته؟

ان مجتمعنا العربي يوحى الى ابنائه الذين يشعرون بصلة صادقة به انه بحاجة الى بعث الروح، لأن ما آل اليه من انحراف وتأخر وتشويه ليس مجرد مظهر، بل هو نتيجة لفتور او نضوب شاب الروح العربية في فترة من الزمن بفعل عوامل كثيرة مختلفة. هذه النظرة التي تحدونا الى العمل وترسم لنا منطلق عملنا تتلخص هكذا: اننا نشعر بأن مجتمعنا العربي بحاجة الى ان يغالب نفسه ويناضل نفسه، بحاجة الى بذل جهد ومشقة كبيرة حتى يسترد ذاته الحقيقية، حتى يصل بالجهد والمشقة الى اصالته، حتى يتحرر من الزيف الذي اصابه. ولا يكون التحرر سهلاً ولا بدون ثمن، فنحن نعتقد ان العرب عليهم ان يدفعوا الثمن حتى يصلوا الى حالة جدية بهم، لاثقة بعبقريتهم، لاثقة بماضيهم، وكل ما يأتي سهلاً رخيصاً يكون سطحياً مصطنعاً. الانقلاب تعبيره العملي هو النضال، والنضال له معان كثيرة اوله معنى واسع لا ينحصر في النضال السياسي وحده. وقد يظن بأن النضال اسلوب للعمل وهذا هو الشائع والمطبق عند الكثيرين، في حين ان النضال بالنسبة الى العربي ليس اسلوباً فحسب وانما هو غاية في حد ذاته.

(1) حديث ألقى في مكتب الحزب في حمص.

النضال، الذي هو التعبير العملي عن فكرة الانقلاب، انما يقصد به ان تغالب الامة العربية نفسها بعد تلك الغفوة الطويلة، بعد ذلك الاسترخاء، بعد ذلك الاستسلام للحياة السهلة اللينة، بعد ذلك الابتعاد عن روح الحياة الجدية القاسية، ان يعود اليها الحنين لمصارعة الحياة والقدر، ان تنظر للحياة نظرة عميقة بطولية، وأن ترى القيمة في الجهد قبل ان تراها في ثمره الجهد. ان الآفات التي يشكو منها مجتمعنا ليست بالآفات السهلة، فالفكر مقيد مستعبد فقير هزيل مقلد. والشخصية سطحية ضعيفة الثقة بنفسها لاتقوى على الاستقلال ومجابهة الامور بصراحة. والروح فقيرة وناضبة، آفاقها محدودة، وجوها هابط منخفض. هل تمحي هذه الآفات؟ هل يسترد العرب معنى الحياة الاصيلة بمعجزة من المعجزات، او بتغيير في شكل الحكم او اشخاص الحكام، وهل هذه المظاهر تكفي لكي تتحول الامة العربية من امة تعيش على هامش الحياة والابداع، تتطفل على انتاج غيرها وقلما تحسن استعمال هذا الانتاج، هل تستطيع امتنا ان تنتقل من حالة كهذه الى حالة المساهمة الصادقة في الحضارة والابداع، ان يكون لها اثرها البين الواضح في حضارة العالم وفي تفكير الانسانية، وهل تعود الى نبع الحياة لتستلهم القيم الخالدة وتنشرها وتذيعها على الآخرين؟ وكيف ننتقل من حالة الى نقيضها اذا اكتفينا بتغيير المظاهر والاشكال دون تغيير في الروح؟. . لانصل الى الروح والاعماق الا عن طريق هذه المشقة، هذا الانقسام الداخلي في نفس الأمة ذاتها، هذه الحرب العنيفة التي لاتداني قسوتها قسوة الحروب الخارجية مع الاعداء الالقاء.

أيها الاخوان، اننا نعيش في مستوى هابط من الروح، في جوفات يجب أن تدب فيه حرارة لاهبة تصهر النفوس وتفتح المواهب وتفجر العبقريات والبطولات وتطلق الايمان من ينابيعه العميقة. كيف نوحّد بين افراد هذه الامة الذين باعدت بينهم الانانية والمصالح الشخصية والاستسلام للحياة الرخيصة النفعية والاستسلام للأوهام والتنافر والخصومات العنيفة الحقيرة؟ كيف نحقق من جديد امة واحدة تتعارف وتتألف اذا لم يكن ذلك في طريق نضال لاهب وعر شاق يضطر كل فرد من افراد الامة العربية الى ان يعود الى نفسه، ان يغوص في اعماقه، ان يستكشف نفسه

من جديد بعد التجربة والألم . . عندها توجد الوحدة الحقيقية التي هي نوع جدي مختلف عن الوحدة السياسية، توجد وحدة الروح بين افراد امة كانت في القديم واحدة ثم اصبح كل فرد منها نتيجة العزلة والأنانية والنفعية يعيش غريبا عن اخوانه، وانتصبت بين اجزاء الامة الواحدة حواجز باردة جامدة من هذه الانانية والنظرات السطحية . فلا تعود الوحدة الا في جو النضال الحار.

كيف يعود الينا ماضيينا، هذا الماضي الذي نتغنى به ونحنّ اليه، وكثيرا ما نختلف على تفسيره ومعناه . فمننا من يحسب أن مجرد تقليد اشكاله الجامدة يعيد الينا سر قوته وعبقريته، ومننا من تنفره الاشكال فيعرض حتى عن الروح ويحاول ان يتنكر لهذا الماضي وينكره وينكر كل صلة به .

في ماضيينا روح اصيلة، في ماضيينا حياة حرة سامية، ولكنني اعتقد ان تلك الروح، تلك الاصاله وذلك السمو لا يمكن ان نفهمه أو نتصل به بشكل من الاشكال اذا لم نصعد اليه صعودا شاقا داميا، اذا لم نستحقه استحقاقا كريما لائقا . فكل ما نطمح اليه من اسباب الخلاص، من اسباب التقدم والرقي، يجب ان يعتبر اهدافا بعيدة صعبة لا يليق بالعرب ان يحتالوا عليها احتيالا لينالوها بغير ثمن، وانما ان يمشوا اليها مؤمنين صابرين، وان يعرفوا بأن قيمة تلك الاهداف هي في ان يجتازوا كل الطريق الموصل اليها.

اننا ننظر الى امتنا هذه النظرة ونؤمن بأنها امة واحدة وهذا الايمان نفسه يدعونا الى اعلان الانقسام فيها، لانها لن تسترد وحدتها، لن تبلغ هذه الوحدة المثالية التي هي الآن نظرية مبدئية، الا اذا انقسمت على نفسها . ولكننا في هذا الصراع نحفظ بالمحبة للجميع . عندما نقسو على الآخرين نعرف ان قسوتنا عليهم هي في سبيل ارجاعهم الى نفوسهم والى حقيقتهم، وعندما يقسو علينا الآخرون نعرف ان نفوسهم الحقيقية التي يجهلونها، ارادتهم الكامنة التي لم تتضح بعد، هي معنا، وان كانت سيوفهم علينا.

ايها الاخوان: عندما اقول ان النضال بمعناه الواسع العميق هو السبيل الى بعث الروح العربية وتحقيق الانقلاب العربي، وعندما أشرت المشقة الكبيرة سبيلا لصدق

هذا النضال، لا اكون متشائما أو داعيا الى التشاؤم بل على العكس، لأن هذه الصعوبة نفسها هي التي تمهد الطريق وتسهله .

عندما يفتح طريق النضال الجدي امام طليعة الامة العربية، عندها تتوضح الفوارق بين النوع الجدي من المواطنين، النوع الذي حرر نفسه من المصلحة والشهوات، وبين النوع الذي استعبده المصالح والذي ضعفت نفسه عن الايمان بكفاءة امته وبقدرتها على انقاذ نفسها بنفسها. مجرد هذا الانقسام، مجرد هذا التوضيح بين النوعين، ينقذ الامة من الغموض الذي تعيش فيه، ومن الشك، لأنها ترى صورة صغيرة عن مستقبلها، لأنها تلمس جزءا من حقيقتها التي تشعر بها والتي أصبحت حقيقة واقعة امامها. ان مجرد تقدم الطليعة المناضلة الى الامام يوقظ البذور الخيرة في نفس كل عربي، لأن العروبة تعني التفاؤل، تعني الايمان أن في كل عربي امكانيات للخير والتجديد، ولأن يعود العربي الاصيل الى أصله .

فطريق المناضلين صعب في الظاهر سهل في حقيقته، لانهم يحاربون ليس بقواهم وحدهم، ليس بعددهم المحدود الضئيل، وانما يحاربون ايضا بمصلحة العدد الأكبر من الشعب العربي الذي يوقظه تقدمهم في الطليعة فيستكشف ذاته ومصالحته وطريقه، يحاربون بالارادة الكامنة التي تجيش في صدر الامة جمعا، هذه الارادة التي يعوزها المثل والقدوة الجريئة حتى تنتقل من حالة السكون والغفوة الى حالة اليقظة والفعل .

واني اتمثل بمعنى آية كريمة وهو أن العرب المسلمين في زمن ظهور الدعوة كانوا ينتصرون بعدد قليل لأن الله يمدهم بجنود لا ترى ولا يراها اعداؤهم . اني أفهم من هذا المعنى ما يتفق تماما مع حالة الطليعة المناضلة في مرحلتنا الحاضرة، فالجنود غير المنظورة التي تحارب مع هذه الطليعة هي مصلحة العدد الاكبر لأنها تعني بقاء الامة وحفظ كيانها وتحقيق تقدمها. وهذا التجاوب بين الحركة الانقلابية وبين مصلحة العدد الاكبر من الشعب هو وحده الذي يضمن لهذه الحركة الفوز والنجاح .
أيها الاخوان: اننا نعتقد بأن الروح هي الاصل في كل شيء . . . الدافع الروحي العميق لا يسيطر على المادة والوسائل فحسب، وانما يخلقها ايضا . فالانقلاب يجب

ان يتناول الروح مباشرة وأن لا ينحصر أو يتوقف عند حدود الاشكال والمظاهر. لو فرضنا أن صدفة من الصدف أو معجزة من المعجزات حررت العرب في يوم واحد من جميع هذه المظالم والمفاسد التي تقف حجر عثرة في سبيل حياتهم وتقدمهم، وأن الحكومات زالت بفعل سحر عجيب من طريقنا وحلت محلها الحكومات النزيهة القومية الغيورة على المصلحة العامة، هل تعتقدون بأن الانقلاب العربي يتحقق؟ انني أعتقد بأن شيئاً من هذا لا يكون، لأن التبديل السطحي الذي لا يمس الروح والذي لا يفتح الفكر والذي لا يهز الخلق ويقومه والذي لا يفسر الايمان نتيجة المصاعب، ان هذا التبديل السطحي لا يلبث أن يتحول الى ما كان عليه الامر في السابق.

المجتمع العربي المنشود والمستقبل الذي نشده والذي تتحقق فيه الروح العربية، ويتحقق فيه العدل وسلامة التركيب بين أفراد الامة وطبقاتها، هذا المستقبل يجب ان تهيأ له ادوات حية من البشر تكون من نوعه وجوهره حتى تكون أمينة في تطبيقه، واعية لأساليبه وطرقه. ان النضال الذي سميته التعبير العملي عن الانقلاب، هو الذي يخلق الأدوات الحية، أي المناضلين، الذي يصبح الانقلاب شيئاً حياً في نفوسهم وعقولهم واخلاقهم، أو يصبح حياتهم ذاتها، فلا بد اذن من اجتياز هذا الطريق الذي يخلق لنا المناضلين تباعاً، والذي يكون امتحاناً للنفوس القوية المثالية التي تتعفف المصلحة الشخصية وتنظر الى الحياة نظرة أبعد وأرفع من اللذات والاستمتاع، والتي ترى فيها تحقيقاً لعنصر سام سماوي وجد في الانسان لكي يشع في سلوكه. هذا النضال هو المصنع للأدوات الانقلابية الأمينة الوفية.

عام ١٩٥٠